**أوضاع المغرب الأوسط (دولة بني عبد الواد) نهاية ق15م وبداية ق16م**

شهد المغرب الأوسط ممثلا في الدولة الزيانية أواخر القرن الخامس عشر وبدایة القرن السادس عشر تدهورا على مختلف المستويات السیاسیة والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية، مما جعل الإسبان يستغلون هذه الأوضاع ليرسخوا أقدامهم ولينفذوا مشروعهم الاستعماري.

**01- الأوضاع السياسية:** استسلم أبو عبد الله محمد الثالث الملقب بــــــ (المتوكل على الله) (1462 ـــ1485م) للحفصیین الذين أحكموا سيطرتهم على الناحية الشرقية وتوسعوا إلى المناطق الوسطى حیث استولوا على مدن ملیانة والمدیة وتنس، كما أصبحت الدولة الزیانیة مطمعا للإسبان الذین استطاعوا استغلال الصراع الدائر بین أبو حمو الثالث (1503-1518م) وابن أخیه أبو زیان الثالث المدعو (المسعود) المخلوع والسجین، فدعموا یحي الثابتي أخ أبو زیان الثالث ضد عمه أبو حمو الثالث، فاستولى یحي على تنس بمساعدة الإسبان.[[1]](#footnote-2)

تبدو دولة بني زیان خلال هذه الفترة قد أنهكتها الحروب الداخلیة والصراعات المتواصلة سواء بین أبناء البیت الواحد من آل زیان أو مع القبائل الرافضة لسلطتهم والراغبة في الاستقلال، كقبائل مغراوة وتوجین وملیكش وحصین وغیرها، مما أدى إلى استنزاف خزینة الدولة في سبیل قمع هذه الثورات.[[2]](#footnote-3)

**02- الأوضاع العسكرية:** عرف المغرب الأوسط في هذه الفترة ضعفا عسكریا كبیرا مقارنة مع ما بلغته أوروبا في تلك الفترة، فدولة بني زیان لم یكن لها أسطولا بحريا ولا جیشا مجهزا من ناحیة العدة والعتاد، وكل ما كان لدیها هو جیشا بريا مزودا بأسلحة تقلیدیة كالسیوف والبغال والجمال...، كما لم تكن تتوفر على التحصینات، ویعود ذلك إلى عدم الاستقرار الذي تمیزت به دولة بني زیان سواء في ثوراتها المستمرة مع جیرانها أو مع المعارضة في الداخل مما لم یسمح لها بتكوین جیش قوي تعتمد علیه الدولة في رد غارات الجیران والإسبان وقمع الثورات الداخلیة.[[3]](#footnote-4)

**03-الأوضاع الاقتصادية:** فقدت بلاد المغرب الأوسط أهمیتها التجارية بالبحر الأبیض المتوسط باعتبارها همزة وصل بین السواحل والمناطق الصحراوية بفعل الاكتشافات الجغرافیة الأوروبیة للطرق والممرات الجدیدة، وأدى عدم الاستقرار السیاسي والاجتماعي وغیاب الأمن إلى هجرة الفلاحین لأراضیهم وقلة الإنتاج الزراعي وتوقفت الحركة التجاریة الداخلیة وتدهورت بالتالي الأوضاع الاقتصادية للبلاد.[[4]](#footnote-5)

**04- الأوضاع الاجتماعية:**كان المغرب الأوسط أواخر القرن الخامس عشر 15م مقسما إلى إمارات قبلیة وبطون وقبائل مختلفة ومتنوعة، فقد استقل بنو عبد الواد بتلمسان وضواحیها، أما بقیة البلاد الوسطى والجنوبیة فكانت مقسمة إلى إمارات قبلیة عدیدة ومشايخ كمشیخة مدینة الجزائر التي حكمها الثعالبة، وإمارة كوكو بجبال القبائل الكبرى وإمارات أخرى مستقلة كإمارة بني عباس ببلاد القبائل الصغرى، وبني المهلهل،وإمارة عائلة بوعكاز بجهات الحضنة وبلاد الزاب، بالإضافة إلى وجود العدید من القبائل العربیة والبربریة، فمن القبائل العربیة نجد قبیلة الثعالبة في سهل متیجة وقبیلتي الضحاك وعیاد بجهة برج حمزة وقبیلة یزید وحسین وعطاف وسوید في منطقة الهضاب وبني عبید الله والمعاقیل في الناحیة الغربیة، ومن القبائل البربریة توجد زواوة وصنهاجة بجبال جرجرة ومغراوة وتوجین بجبال ملیانة والونشریس إضافة إلى قبائل فطین وبني میزاب في الهضاب والواحات،كما تواجد اللاجئون الأندلسیون وطائفة الیهود الذین ازداد توافدهم خلال القرن الخامس عشر 15م بفعل سقوط غرناطة ومطاردة الإسبان لهم.[[5]](#footnote-6)

هذا التنوع والتشتت في التركیبة الاجتماعیة في ظل غیاب سلطة مركزیة جعل البلاد تعیش اختلالا اجتماعیا صاحبه سوء الأحوال الصحیة والمعاشیة وتخربت أثناءه المدن وافتقرت الأریاف، فقد قتل العدید من الرجال بسبب الحروب وترملت النساء وانتشرت اللصوصیة والظلم والغصب والأوبئة والمجاعات، هذا الأمر أدى إلى هجرة العدید من السكان سواء إلى المغرب الأقصى أو إلى تونس أو إلى البلاد العربیة الأخرى، أو إلى المناطق الجبلیة أو الداخلیة البعیدة عن الصراعات، كما أدى ذلك أیضا إلى انعدام الأمن وعدم الاستقرار السیاسي، فانتشرت الفوضى بین الناس في كل میادین الحیاة وفي مختلف أرجاء البلاد.[[6]](#footnote-7)

كل هذه الأوضاع عجلت بسقوط الدولة الزيانية واستغل الإسبان ذلك ليحتلوا العديد من مدن المغرب الوسط نذكر منها:

**05- الاحتلال الإسباني لسواحل المغرب الأوسط:** خوفا من عودة الأندلسيين مرة أخرى قررت إسبانيا احتلال المدن الساحلية الإسلامية الواقعة في المنطقة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط بالنسبة إليهم عامة والمغرب الأوسط خاصة، ففي ظرف خمس سنوات من 1505م إلى 1510م بالنسبة للمغرب الأوسط احتلوا المرسى الكبير، وهران، أرزيو، مستغانم، شرشال، الجزائر، وبهذا فقد حقدت إسبانيا على هذه العدوة لحمايتها للاجئين الأندلسيين، ومساعدتها لثورات الموريسكيين في الأندلس.

**أ- احتلال مدينة وهران والمرسى الكبير 1509م**: عملت المملكة الإسبانية جاهدة على اختراق خط الدفاع الساحلي لبلاد المغرب بعد أن تمكنت من القضاء على مملكة غرناطة سنة 1492م فكانت خطتها قائمة على غزو سواحل شمال إفريقيا، من أجل تصفية النفوذ الإسلامي نهائيا من شبه الجزيرة الإيبيرية، وقد أسفر هذا الانتصار الذي حققه الملكان المسيحيان ضد المسلمين على انتعاش الروح الصليبية من جديد وتعقب الأندلسيين الذين التجأوا إلى موانئ شمال إفريقيا فبدأت إسبانيا بإنزال حملاتها على سواحل المغرب.[[7]](#footnote-8)

يذكر المؤرخ محمد بن يوسف الزياني في كتابه "دليل الحيران" عن احتلال مدينة وهران من طرف الإسبان أنه جاء بعد إكمال فردناندو احتلال الأندلس فيقول: "ثم غزا فردينة المار بجيشه وهران في أوائل ربيع الثاني سنة 911هــ فملك برج المرسى، واستقروا به إلى سنة 914هــ دخلوا وهران وذلك في آخر شهر محرم، ويعود دخول الإسبان إلى وهران طمعا في خيراتها، لما رأوا فيها من تطور مس جميع جوانبها، وخاصة منها الجانب الاقتصادي والعمراني المتأثر بالحضارة الأندلسية، ذلك أنها شهدت في ظل السيطرة الزيانية والمرينية والحفصية ومهاجري الأندلس نشاطا تجاريا وصناعيا واسعين، وزادت منازلها في هذه الفترة على ستة آلاف منزلا، وتعددت مساجدها وفنادقها ومدارسها وحماماتها ومبانيها العامة.

**ب- احتلال بجاية 1510م**: لم تكن بجاية بعيدة عن أحداث بلاد المغرب الأوسط، بل كانت تعتبر نفسها مسؤولة عن حماية ثغوره، وكان تدخلها المستميت من طرف سكانها وحكامها في الشأن الداخلي للمنطقة، وتدخلها في الشأن الخارجي بتكثيف الجهود لنصرة الأندلسيين سببا في توجه الإسبان لاحتلالها، فكانت ترى أن عليها مسؤولية الدفاع عن الأندلس، وحماية أهلها فكانت سفنهم الحربية تقوم بعمليات انتقامية لإخوانهم الأندلسيين، الذين التحق بعضهم بالمدينة هروبا من الضغوط التي كانوا يتعرضون لها في إسبانيا، وقد أصبح بعضهم يشارك في تلك العمليات، وكانت تلك المساعدات ذات أثر على احتلال المدينة، إذ كان الإسبان ينظرون إليها على أنها شوكة من شأنها أن تهدد مستقبل وجودهم بالمنطقة، فكانت بجاية الهدف الثاني بعد احتلال وهران بسنوات قليلة نظرا لأهمية المنطقة، ودورها السياسي والعسكري في بلاد المغرب الأوسط، وفي مساعدة الأندلسيين الفارين من الأندلس بعد سقوط غرناطة.[[8]](#footnote-9)

ونظرا لأهمية المدينة فقد أعد لها الإسبان العدة لشن ضرباتهم ضدها إذ بذل الكاردينال "خيمينس" من المهمة والجهد في تجهيز الحملة نفس ما بذله في تجهيز حملتي وهران والمرسى الكبير، وأسند القيادة إلى بطرس النفاري "بدرو نافارو"، فأخذ يستعد تحت طي الكتمان حتى لا تتسرب أنباء المسيرة إلى بجاية، وامتطى صهوة أسطوله بالمرسى الكبير يوم 30 نوفمبر 1509م مدعيا العودة إلى إسبانيا، واتخذ طريقه فعلا صوب الشمال، وأرسى على جزائر الباليار الإسبانية فقضى بها شهر ديسمبر القاسي ذا الرياح المتقلبة، وجاءه المدد من إسبانيا إلى هناك، فنظم الحملة، ورتب تفاصيلها، ووضع على الأسطول الأمير "خيرو نيمو فيانلي".[[9]](#footnote-10)

**ج- احتلال عنابة:** لما تمكن الإسبان من احتلال بجاية امتدت أيديهم نحو الشرق من بلاد المغرب الأوسط، فحاولت أن تقضي على مدينة ساحلية أخرى ألا وهي مدينة عنابة ذلك أن القيادة الإسبانية المحكمة التي كانت تنفذ برنامجا دقيقا من أجل احتلال البلاد الساحلية قد أصبحت تضيق الدائرة وتقطف المدن الساحلية، فاحتلت مدينة عنابة الجميلة المتحضرة بعد مقاومة لا تكاد تذكر، وسلك فيها جندها ما كان يسلكه باستمرار في المدن التي يحتلها، وكان ذلك سنة 1510م.[[10]](#footnote-11)

**د- احتلال تلمسان ومعسكر:** لما كانت تلمسان من أهم المدن الساحلية التي استقطبت العديد من الأندلسيين الفارين بدينهم وعقيدتهم وفكرهم إلى سواحل المغرب الأوسط، لم تسلم من هذا الاحتلال، وبالتالي نالت نصيبا منه، فتلمسان مدينة العلم والعلماء في العصر الزياني، ومنطقة للتبادل الثقافي بين المشرق والمغرب، ورابط حضاري بين المغرب والأندلس، فهجرة العلماء والمفكرين الأندلسيين إليها لم تعرف الانقطاع، ونظرا لهذه الصلة الوثيقة بين العدوتين كان لزاما على الإسبان احتلالها لقطع هذا الحبل باعتبارها أهم منطقة جلبت الأندلسيين إليها من جهة، وللقضاء على قوتها البحرية والاقتصادية من جهة أخرى، فتضررت الحضارة الزيانية من جراء هذا الاحتلال أيما تأثير فبعد أن وصل إلى تلمسان آخر أمراء بني الأحمر بغرناطة أبو عبد الله محمد بن سعد الزغل عبر وهران بدأت التهديدات الإسبانية تظهر في الأفق ضد تلمسان، واضطر الأمير الزياني محمد السابع أن يذهب بنفسه إلى إسبانيا ليطمئن فرديناند الخامس، ويقدم له الهدايا استرضاء له.[[11]](#footnote-12)

**ه- احتلال مدينة الجزائر:**عرفت صراعا كباقي المدن الأخرى مما هيأها لأن تكون من أولويات المدن في التعرض للاحتلال الأجنبي الإسباني بعد زوال ملك غرناطة بها، وقد كان لسقوطها دورا بارزا في استمرار التوسع على حساب الأراضي المغربية ومنها الجزائر التي كان من بين أسباب احتلالها موقعها الجغرافي الهام، وغناها الاقتصادي العظيم الذي جعل إسبانيا تفكر في احتلالها تعويضا للخسائر التي لحقت بها في حربها مع المسلمين في الأندلس.

ومن الأسباب التي دفعت إسبانيا إلى هذا الغزو، الدور الهائل الذي لعبه ولاة المغرب الأوسط، وتفانيهم في نصرة إخوانهم الأندلسيين الفارين بدينهم وعقيدتهم إلى الجزائر،وكان الجهاد البحري في شمال إفريقيا قد لفت أنظار أوروبا المسيحية، ولاسيما مجاهدي الجزائر الذين وجهوا نشاطهم ضد السفن الأوروبية، وسببوا الكثير من المتاعب للدول الأوروبية المواجهة للبحر الأبيض المتوسط، حيث نقلوا معهم الكثير من الأسرى والغنائم، وتكفلوا بعمليات إنقاذ مسلمي الأندلس من محنتهم، مما شغل الكثير من المؤسسات الدينية والعسكرية والسياسية الأوروبية، وعليه كان للقائدين البحريين عروج وخير الدين دور فيهذا الجهاد، وكانت إسبانيا تنوي التخلص منهما، وسعت إلى ذلك بكل الطرق والمكائد والدسائس، وقد ساء أعمال هذين القائدين ملوك إسبانيا الذين اعتبروها قرصنة بحرية، في حين اعتبرها بعض الدارسين أنها نوع من الجهاد البحري.[[12]](#footnote-13)

1. - الدراجي بوزیاني: نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزیانیة، دیوان المطبوعات الجامعیة، الجزائر، 1993، ص205. [↑](#footnote-ref-2)
2. - الدراجي بوزیاني: المرجع السابق، ص205. [↑](#footnote-ref-3)
3. - نفسه: ص273. [↑](#footnote-ref-4)
4. - عبد العزیز فیلالي: تلمسان في العهد الزیاني، المؤسسة الوطنیة للفنون، الجزائر، 2002، ج02، ص496. [↑](#footnote-ref-5)
5. - أحمد توفیق المدني: المرجع السابق، ص ص94، 95. [↑](#footnote-ref-6)
6. - كورين شوفالييه: الثلاثون سنة الأولى لقیام دولة مدینة الجزائر 1510- 1541، تر: جمال حمادنة، دیوان المطبوعات الجامعیة، الجزائر، 2007، ص06 . [↑](#footnote-ref-7)
7. - حنيفي هلايلي: المرجع السابق، ص123 . [↑](#footnote-ref-8)
8. - عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم: تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ط01، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، 1979، ص24. [↑](#footnote-ref-9)
9. - أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا 1492- 1792، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1968، ص108، 109. [↑](#footnote-ref-10)
10. - نجيب دكاني: **الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية وردود الفعل الجزائرية خلال القرن العاشر هجري 10ه السادس عشر ميلادي 16م**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: ناصر الدين سعيدوني، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2001- 2002، ص28. [↑](#footnote-ref-11)
11. - يحيى بوعزيز: علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500- 1830، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص ص11، 12. [↑](#footnote-ref-12)
12. - حنيفي هلايلي: أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي والمورسكي، دار الهدى، الجزائر، 2010، ص20. [↑](#footnote-ref-13)